

أضواء البيان

@ 171 سفّاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمة طلماً ، وسيافه قائم على رأسه ، والنطع مبسوط للقتل ، والسيف يقطر دماً ، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته ، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه ، وهو ينظر إليه ، عالم بأنه مطلع عليه ؟ لا ، وكلا بل جميع الحاضرين يكونون خائفين ، وجلّة قلوبهم ، خاشعة عيونهم ، ساكنة جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك . .

ولا شك (و) المثل الأعلى) أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علماً ، وأعظم مراقبة ، وأشد بطشاً ، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك ، وحماه في أرضه محارمه . فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه ، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي لأن قلبه ، وخشي الله تعالى ، وأحسن عمله لله جل وعلا . .
ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً ، ولم يقل : أيهم أكثر عملاً ، فالابتلاء في إحسان العمل ، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ رُضًا عَلَىٰ سَنَدَةٍ أَيْسًا وَكَانَ عَرُّهُ عَلَٰى الْمَآءِ لِيَبْدُلَوكُمْ أَيْسُكُمْ أَوْ سَنَدًا أَوْ حِسْنًا أَوْ عَمَلًا } . .

وقال في الملك : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْدُلَوكُمْ أَيْسُكُمْ أَوْ حِسْنًا أَوْ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } . .
ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى أي يختبر : بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار ، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (أخبرني عن الإحسان) ، أي وهو الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى ، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه ، فقال له : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . .

واختلف العلماء في المراد بقوله في هذه الآية الكريمة { أَلَا إِنَّ زُجَّجَهُمْ يَتَذُنُّونَ صُدُورَهُمْ } وقوله { يَسْتَتِغْشُونَ ثِيَابَهُمْ } وفي مرجع الضمير في قوله : { مِنْهُمْ } .

